عَرَبيّةُ القُرآنِ التي عَرّبَتِ العالَمَ

نَواةُ البَحْثِ وقَصْدُه:

يَسْعَى البَحْثُ إِلَى إِمْدادِ القارئ بِخُلاصةٍ مُرَكَّزةٍ في شَأنِ العَرَبِ الذينَ تخلّقتِ العربيّةُ القُرْآنيّةُ في أَرْحامِ عُقُولِهم وأَلْسِنَتِهم، ثُمّ نَمَتْ وازْدَهَرَتْ في تُرْبةِ الإبداعِ اللّغَوِيّ عِنْدَ القُرَشِيِّينَ خاصّةً، إِلَى أَن صارَتْ في تحادُثِهم وتَفاكُرِهم وتَسابُقِهم في الإبداعِ الأَدَبيّ الرّفيعِ عِيارًا عالِيَ الصَّقْلِ والتّهذيبِ، دَقيقَ الحِسابِ والحُكْمِ، كانُوا بِامْتِلاكِهم إِيّاهُ صَيارِفةَ البَيانِ العالي والكلامِ الذي يَسْتَلِبُ الأَلْبابَ، في كُلّ أَصْقاعِ جَزيرةِ العَرَبِ. وكان مِن آثارِ تِلْكَ الأُسْتاذيّةِ القُرَشيّةِ في الفَصاحةِ والبَلاغةِ والبَيانِ والبَراعةِ أَن آثَرَتْ قَبائلُ العَرَبِ في غَيْرِ الحِجازِ لَهْجةَ قُرَيشٍ عَلَى لَهجاتِها، وغادَرَتْ تِلْكَ اللّهَجاتُ مِساحةً واسِعةً مِن مَيادينِ اسْتِعْمالِ القَبائلِ إِيّاها، لِتَحُلَّ لَهْجةُ قُرَيشٍ مَحَلَّها. ويَبْدُو أَنّ ذلكَ أَخذَ صُورةَ عِراكٍ مُمتدٍّ، انتهى بِإسْلامِ زِمامِ السِّيادةِ اللّغَوِيّةِ إِلَى قُرَيشٍ قَبْلَ نُزولِ القُرآنِ والرِّسالة. وحَدَثَ بَعْدَ نُزُولِ الوَحْيِ القُرآنيّ أَنّ أَساتذةَ البَيانِ العَرَبيّ القُرَشيّ ازْدادُوا أَلَقًا عَلَى أَلَقٍ؛ لِأَنّهم اسْتَمَدُّوا مِمّا وَعَتْ صُدُورُهم مِن البَيانِ العالي في القُرآنِ فُيُوضًا يَعِزُّ وَصْفُها مِن صِياغةِ المُفرداتِ التي أُفْرِغَتْ إِفْراغًا واحِدًا، وسُبِكَتْ سَبْكًا واحِدًا، فهِيَ تَجْري عَلَى اللِّسانِ كما يَجْرِي الدِّهانُ، وَفْقًا لِما يقولُ الجاحِظُ في وَصْفِ >خَيْرِ الشِّعْرِ<[١]. ثُمّ بَعْدَ أَن تَسَلَّحَ القُرَشِيُّونَ المُهاجِرُونَ واليَثْرِبِيّونَ الأَنْصارُ بِأَمْضَى أَسْلِحةِ الإيمانِ والبَيانِ، وانطَلَقُوا في أَرْجاءِ المَمالِكِ جَنوبًا وشِمالًا، وشَرْقًا وغَرْبًا، حَدَثَ عِراكُ >العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرآنيّةِ< مَعَ لُغاتٍ أُخَرَ كانَتْ سائدةً في بُلْدانٍ كثيرةٍ قَبْلَ الفَتْحِ، ونُسمّي هذا العِراكَ >العِراكَ الثّانيَ<. وقد هَزَمَتِ العَرَبيّةُ القُرَشيّةُ القُرآنيّةُ فِيهِ الآراميّةَ في

١- البيانُ والتّبيِينُ، ج١، ص٦٧.

الشّامِ والعِراقِ، والقِبْطِيّةَ في مِصْرَ، والبَرْبَرِيّةَ في شِمالِيِّ إفْرِيقِيَةَ، وعاركَتْ أيضًا الفارسيّةَ ولُغاتٍ أُخَرَ في الشَّرْقِ والغَرْب.

وابْتِغاءَ إيضاحِ مادّةِ هذه الفِكْرة، نَقِفُ مَعَ مَن نَتوَقَّعُ أَنّهُ يَنْشُدُ فَهْمَها والإِلْمامَ بِعَناصِرِها عِنْدَ النِّقاطِ الآتية:

١- العَرَبُ جِنْسًا بَشَرِيًّا مُتعامِلًا مَعَ وُجُودٍ مُتعَيِّنٍ خاصٍّ، ومتميِّزًا بِصفاتٍ خاصّة.

٢- الطّبيعةُ الخاصّةُ لِلْقُرَشِيِّينَ الذينَ ارتقَوا بِالعَربيّةِ وهَيَّؤوها لِاستِقْبالِ المَدَدِ البَيانيِّ الإلهيِّ.

٣- تَناهي النُّضْجِ اللُّغَوِيِّ البَيانيِّ في العَرَبيّةِ القُرَشِيّةِ قَبْلَ نُزُولِ القُرآن.

٤- انتصارُ لَهْجةِ قُرَيشٍ عَلَى اللَّهَجاتِ العَرَبيّةِ الأُخَر (الانتصارُ الأَوّلُ).

٥- القُوّةُ البَيانيّةُ العاليةُ لِلَهْجةِ قُرَيشٍ قَبْلَ تَنْزِيل الوَحْيِ بِوَقْتٍ.

٦- انتصارُ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرآنيّةِ وإزاحتُها مُعْظَم لُغاتِ بُلْدانِ الفَتْح (الانتصارُ الثّاني).

٧- تَعْرِيبُ عَرَبيّةِ القُرآنِ العالَمَ في عَصْرٍ مِن العُصور.

٨- المُحَصَّلُ الأَخِيرُ، أو قَصيرةٌ مِن طَويلة.

١- العَرَبُ جِنْسًا بَشَرِيًّا مُتعامِلًا مَعَ وُجُودٍ مُتعَيِّنٍ خاصٍّ، ومُتميِّزًا بِصِفاتٍ خاصّة:

لا يُمكِنُ عاقِلًا أَن يَذْهَبَ إِلَى أَنّ حَرَكةَ الوُجودِ نِتاجُ تفاعُلٍ باطِنيٍّ بَيْنَ عناصِرِ إراداتٍ بَشَرِيّةٍ قَصِيرةِ العُمُر، ضعيفةِ القُدَرِ، مَهْما تَفاوَتَتْ هذه في إِمْكانيّاتِ التّحْرِيكِ والإثارةِ، أو تَعْبيرٌ عن مُصادَفاتٍ عَمْياءَ لا هَدَفَ لَها ولا قَصْدَ. وفي مُتناوَلِ المُتأمِّلِ هُنا أَن يَذْكُرَ احْتِمالاتٍ كثيرةً لِهذه الحَرَكةِ الوجوديّة. ومَعَ ذلكَ، لا يبقَى هنا إلّا أَن يقولَ العاقِلُ في هذا الشّأنِ: إنّ قُدْرةً عَظِيمةً هائلةً هادِفةً لا يُبْصِرُها إلّا ذَوُو الفِطَنِ والبَصائرِ هي التي تُحَرِّكُ كُلَّ ما يَتعيَّنُ في الوُجودِ، فتَراهُ الأَعْيُنُ، أو تَرَى بَعْضَه.

وقد يَجِدُ المَرْءُ في الكِتابِ الإلهيِّ القُرآنيِّ تعالِيمَ جامِعةً مانِعةً قاطِعةً في شأنِ التَّحْرِيكِ الإلهيِّ لِلْوُجود، وكذا في السُّنّةِ المُطَهَّرة. ولا نَرانا هُنا في حاجةٍ إِلَى إِثْباتِ ما هو رُكْنٌ رَكِينٌ في صَرْحِ ثَقافَتِنا. لكنّ هذا يُهيِّئُ لَنا أَن نقولَ إنّ الهَنْدَسةَ الكَوْنيّةَ الإلهيّةَ أَعَدّتِ العَرَبَ عامّةً إِعْدادًا خاصًّا، وأَعَدّتْ عَرَبَ العربيّةِ القُرَشيّةِ القُرآنيّةِ إِعْدادًا خاصًّا أيضًا. وفي شَأنِ كَوْنِ العَرَبِ عامّةً جِنْسًا بَشَرِيًّا حَباهُ خالِقُ الوُجودِ خاصّيّاتٍ مُتميِّزةً مِثْلَما حَبا أَجْناسَ البَشَرِ جميعًا، تَأْوِي هنا إِلَى جَبَلٍ فِكْرِيٍّ عاصِمٍ، يَكْفِينا إِلَى حَدٍّ ما مَؤونةَ حَطْبِ اللّيلِ وذِكْرِ ما يُهِمُّ وما لا يُهِمُّ. وذلكُم هو ابنُ المُقفَّع. حَيْثُ تذكُرُ لَنا الأَخْبارُ أَنّ ابْنَ المُقفَّع (ت ١٤٢ه)، المَعْدُودَ مِن ذَوِي الرّأْيِ الحَصِيفِ والكَلامِ الحَكيمِ، سَأَلَ جَماعةً مِن نابِهي العَرَبِ: أَيُّ الأُمَمِ أَعْقَلُ؟- فأَجابَ هو نَفْسُه عن سُؤالِه: >أَعْقَلُ الأُمَمِ العَرَبُ<. ثُمّ مَضَى يُبَيِّنُ أَسْبابَ ذلكَ فقالَ:

>إنّ العَرَبَ ليسَ لَها أَوّلٌ تَؤمُّه، ولا كِتابٌ يَدُلُّها. أَهْلُ بَلَدٍ قَفْرٍ ووَحْشةٍ مِن الإنْس، احتاجَ كُلُّ واحِدٌ مِنهم في وَحْدَتِه إِلَى فِكْرِه ونَظْرِه وعَقْلِه، وعَلِموا أَنّ مَعاشَهم مِن نَباتِ الأَرْضِ فَوَسَمُوا كُلَّ شَيءٍ بِسِمَتِه، ونَسَبُوه إِلَى جِنْسِه، وعَرَفُوا مَصْلَحةَ ذلكَ في رَطْبِهِ ويابِسِه، وأَوقاتِهِ وأَزْمِنَتِه، وما يَصْلُح مِنْهُ في الشّاةِ والبَعير. ثُمّ نَظَروا إِلَى الزّمانِ واخْتِلافِه فجَعَلُوهُ رَبيعيًّا وصَيْفِيًّا، وقَيْظِيًّا وشَتْوِيًّا. ثُمّ عَلِمُوا أَنّ شُرْبَهم مِن السّماءِ، فَوَضَعُوا لِذلكَ الأَنْواءَ، وعَرَفُوا تَغيُّرَ الزّمانِ فَجَعَلُوا لَهُ مَنازِلَهُ مِن السَّنة. واحْتاجُوا إِلَى الانتشارِ في الأَرْضِ، فَجَعَلُوا نُجُومَ السَّماءِ أَدِلّةً عَلَى أطرافِ الأرضِ وأَقْطارِها، فَسَلَكُوا بِها البِلادَ. وجَعَلُوا بينَهُم شَيئًا يَنتَهُونَ به عن المُنْكَرِ، ويُرَغِّبُهم في الجَميل، ويَتجَنَّبُونَ به الدَّناءةَ ويَحُثُّهُم عَلَى المَكارم... لَيْسَ لَهُمْ كَلامٌ إلّا وهُمْ يَتحاضُّونَ به عَلَى اصْطِناعِ المَعْرُوفِ ثُمّ حِفْظِ الجارِ، وبَذْلِ المالِ، وابْتِناءِ المَحامِدِ. كُلُّ واحِدٍ مِنْهُم يُصِيبُ ذلكَ بِعَقْلِه، ويَسْتَخْرِجُه بِفِطْنَتِه وفِكْرَتِه. فلا يَتعلَّمُونَ، ولا يَتأَدَّبُونَ، بل نَحائِزُ(*) مُؤدَّبةٌ، وعُقُولٌ عارِفةٌ. فَلِذلكَ قُلْتُ لَكُم: إنّهُم أَعْقَلُ الأُمَمِ؛ لِصِحّةِ الفِطْرةِ،

*- أي طَبائعُ.

واعْتِدالِ البِنْيةِ، وصَوابِ الفِكْرِ، وذَكاءِ الفَهْم<(١).

وشَهادةُ ابنِ المُقفَّعِ الفارِسِيِّ الأَصْلِ، >البارِع في أَدَبِه المُقدَّمِ بِعَقْلِه<، تُقْبَلُ بِقَدْرٍ جيِّدٍ في الحُكْمِ العامِّ عَلَى العَرَب، الّذين تَلَقّتْ عُقُولُهم بَعْدَ ذلكَ المَعانيَ الإلهيّةَ القُرْآنيّةَ المَصُوغةَ بِلُغتِهم. ثُمّ كانُوا نَقَلَتَها وشُرّاحَها لِلْعالَمِينَ إِلَى اليَوْم. والعَرَبُ، بِمَنْطِقِ هذه الشّهادةِ، خُبَراءُ الوُجُودِ العِيانيِّ المُشاهَدِ، الذين تَأمَّلُوا عناصِرَه ومُكوِّناتِه وطَبائعَ أَشْيائِه، وأَصْحابُ الأَخْلاقِ العَمَليّة. فَهُم، عَلَى هذا، مُعَلِّمُو الضَّرُوراتِ والحاجات. ثمّ حِينَ تَلَقَّوْا >البَيانَ الإلهيَّ< كانُوا مُهيَّئِينَ لِأَنْ يَتعلَّمُوا مِن >عالِمِ الغَيْبِ والشّهادةِ<. واللّافِتُ لِلنّظَرِ أَنّ >العِلْمَ الإلهيَّ< الذي تَلَقّاهُ العَرَبُ بِوَساطةِ القُرآنِ والنّبيِّ زادَهم اطْمِئنانًا إِلَى عناصِرِ خِبْرَتِهم العَمَليّةِ السّابقة. وكَأَنّ الأَمْرَ في حَيْثُ يُمْكِنُ المَرْءَ أَن يقولَ في شأْنِ العَرَبِ في ذلك الزّمانِ: نَصرَ عِلْمُ الغَيْبِ المُنْزَلُ عَلَى العَرَبِ عِلْمَ الشّهادةِ المُدَّخَرَ في خَزائنِ عُقُولِهم، فاجْتَمَعَ عِنْدَهم عِلْمٌ وعِلْمٌ.

وفي هذه المُناقَشةِ، يَجِدُ المَرْءُ نَفْسَه مَدْفُوعًا إِلَى القَوْلِ إِنّ المَعْرِفةَ العَمَليّةَ المُتطاوِلةَ عِنْدَ العَرَبِ، التي دَلَّلَ عَلَيها ابنُ المُقَفَّع، اسْتَدْعَتْ لُغةً عَرَبيّةً عَمَليّةً أَعْطَتْ مُفْرداتٍ وأَسْماءً لِكُلِّ الأَشْياءِ المُعايَنة، وهو ما نَخالُ أَنّ ابْنَ المُقفّعِ عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْله عَنْهُم: >فَوَسَمُوا كُلَّ شيءٍ بسِمَتِه، ونَسَبُوهُ إِلَى جِنْسِه<. ولا بُدَّ مِن أَن يكونَ لِهذه المُعايَنةِ العربيّةِ القديمةِ تأْثيرٌ واسِعٌ في عَمَليّةِ >الوَضْعِ اللّغَوِيّ<، أي إِعْطاءِ الأَسْماءِ لِلْمُسَمَّياتِ، أو ما يُسمَّى في عِلْمِ الدِّلالةِ Semantics: الرُّؤيةَ اللُّغَويّةَ لِلْعالَم Language Wiltanschauung. وهذا كُلُّه، فِيما نَرَى، مُعِدٌّ جَيِّدٌ لِلُغةٍ عَرَبيّةٍ مُسْتَوْعِبةٍ لِبَناتِ الأَفْكارِ والأَنْظار، ومَوادِّ الوُجودِ التي كَشَفَ لَهُمْ عَنْها الأَسْتار.

٢- الطّبيعةُ الخاصّةُ لِلقُرَشِيِّينَ الذينَ ارتقَوا بِالعربيّةِ وهَيَّؤوها لاسْتِقْبالِ المَدَدِ البَيانيِّ الإلهيّ:

القُرَشِيّونَ هُمْ عَرَبُ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ، وهؤلاءِ حَبَتْهمُ الهَنْدَسةُ الكَوْنيّةُ الإلهيّةُ صِفاتٍ بَشَرِيّةً خاصّةً أَسْهَمَتْ مَعَ غَيْرِها في التَّهْيئةِ

١- أبو حَيّان التّوحيدي: الإمتاعُ والمُؤانسةُ، ج١، ص٧١.

لِلنّهوضِ بِعَظائمَ، أَظْهَرُها لِلبَصائرِ السِّيادةُ الدِّينيّةُ واللُّغَويّةُ العَرَبيّةُ لِلْعالَم. ولَعَلَّ فَيْلَسُوفًا كبيرًا كمُحَمّد إِقْبالٍ الهنديّ الباكستانيّ قد عَبّرَ جَيِّدًا عن هذه السِّيادةِ حِينَ فاخَرَ بِانْتِسابِه إِلَى الحِجازِ والخَمْرِ الحِجازيّةِ، فقالَ:

أنـا أَعْجَميُّ الـدَّنِّ لكنْ خَمْرَتي   صُـنْـعُ الحِجازِ وكَرْمِها الفَيْنانِ

إِنْ كانَ لي نَغَمُ الهُنودِ ولَحْنُهمْ   لكنّ هذا الصَّــوْتَ مِن عَدْنانِ

ولَعَلّ الحديثَ عن صاحِبِ اللُّغةِ هُنا يُبَرَّرُ حِينَ يُلْحَظُ في ذلكَ أَثَرٌ يَزِيدُ الخُبْرَ بِاللُّغةِ نَفْسِها وبِطَبيعتها. وقد تقدّمَ لَنا شيءٌ مِن حَدِيثٍ عن العَرَبِ عامّةً، ويَسْتَلْزِمُ تَمامُ البَيانِ إشاراتٍ سَريعةً إِلَى طبيعة >قُرَيْشٍ<، صاحبةِ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرْآنيّة. ورُبّما يكونُ البَحْثُ عن خاصِّيّاتِ الشّعوبِ والقَبائلِ والجَماعاتِ شِنْشِنةً قَديمةً مُتجدِّدةً تَدْفَعُ إِلَيها بِاستمرارٍ حاجاتُ التّعارُفِ والعِمْرانِ البَشَريّ.

وقد عَرَضَ لِخَصائصِ قُرَيشٍ خاصّةً كثيرٌ مِن أَهْلِ الفِطَنِ والبَصائر، وأكثَرُ ما جاءَ مِن ذلكَ انْصَرَفَ إِلَى ما سَمّاهُ بعضُ فَلاسِفةِ الغَرْب >الشّخصيّةَ الخُلُقيّةَ<. ويَحْتاجُ العَقْلُ إِلَى إِحْسانِ الرَّبْطِ بَيْنَ صِفاتِ الشّخصيّةِ الخُلُقيّةِ هذه وبَيْنَ اللّغةِ التي عَبَّرَتْ بِها هذه الشّخصيّةُ. وقد التقطَ عَقْلُ الجاحِظِ (ت ٢٥٥ه) جُمْلَةَ خاصّيّاتٍ انفرَدَت بها قُرَيشٌ عن العَرَب، وقالَ في هذا الشّأن:

>فَمِن ذلكَ أَنّا لَمْ نَرَ قُرَشيًّا انتسَبَ إِلَى قبيلةٍ مِن قَبائِلِ العَرَب، وقد رَأَيْنا في قَبائِلِ العَرَبِ الأَشْرافِ رِجالًا - إِلَى السّاعةِ - ينتَسِبُونَ في قُرَيشٍ، كنَحْوِ الذي وَجَدْنا في بَنِي مُرّةَ بنِ عَوْفٍ، والذي وَجَدْنا مِن ذلكَ في بَنِي سُلَيم، وفي خُزاعةَ، وفي قَبائلَ شَريفة. ومِمّا بانَتْ بِهِ قُرَيشٌ أَنّها لم تَلِدْ في الجاهليّةِ وَلَدًا قَطُّ لِغَيْرِها... ومِمّا بانَتْ به قُرَيشٌ مِن سائرِ العَرَبِ أَنّ الله تعالَى جاءَ بالإِسْلامِ وليسَ في أَيْدِي جَميعِ العَرَبِ سَبِيّةٌ مِن جَميعِ نِساءِ قُرَيشٍ، ولا وَجَدُوا في جميعِ أَيْدِي العَرَبِ وَلَدًا مِن امْرَأةٍ مِن قُرَيْش. ومِمّا بانَتْ بِهِ قُرَيشٌ مِن سائرِ العَرَبِ أَنّها لم تَكُنْ تُزَوِّجُ أَحَدًا مِن أَشْرافِ العَرَبِ إِلّا عَلَى أَن يَتحمّسَ(*). وكانُوا يُزَوَّجُونَ مِن غَيْرِ أَن يُشتَرَطَ عَلَيهم... وكانُوا دِيانِيِّينَ، ولِذلكَ تَرَكُوا

*- أي يتديّنَ ويَتّخذَ دِينًا يتحمّسُ لَهُ.

الغَزْوَ لِما فيه مِن الغَصْبِ والغَشْمِ، واسْتِحْلالِ الأَمْوالِ والفُروج... ومِنَ العَجَبِ أَنّ كَسْبَهم لَمّا قَلَّ مِن قِبَلِ تَرْكِهم الغَزْوَ ومالُوا إِلَى الإِيلافِ والجِهادِ، لم يَعْتَرِهم مِن بُخْلِ التُّجّارِ قَلِيلٌ ولا كثيرٌ... فَأَعْطَوا الشُّعَراءَ كما يُعْطِي المُلُوكُ، وقَرَوُا الأَضْيافَ، ووَصَلُوا الأَرْحامَ، وقامُوا بِنَوائبِ زُوّارِ البَيْتِ... ولَقَدْ مَدَحَتْهُمُ الشُّعَراءُ، كما يُمْدَحُ المُلُوكُ، ومَدَحَتْهُم الفُرْسانُ والأَشْرافُ وأَخَذُوا جَوائزَهم... ومِن خِصالِهِم أَنّهم لم يُشارِكُوا العَرَبَ والأَعْرابَ في شيءٍ مِن جَفائِهِم وغِلَظِ شَهَواتِهِم، وكانُوا لا يَأكُلُونَ الضِّبابَ، ولا شيئًا مِن الحَشَراتِ<(١).

وهذا، فِيما أَحْسَبُ، غَيْضٌ مِن فَيْضٍ مِن صِفاتِ >الشَّخصيّةِ الخُلُقيّةِ< لِقُريشٍ، راعِيَةِ اللّغةِ العربيّةِ القُرَشِيّةِ. وجُمْلَةُ القَوْلِ أَنّ هؤلاءِ يَتحلَّونَ بِأَخْلاقِ المُلُوكِ، أو قُل البَشَرِ المُمْتازينَ. ومَن يُسلِّمْ بالمَبْدَأ الخُلُقيِّ السّامِي الذي يقولُ: >المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ: إنْ صالَ، صَالَ بِجَنانٍ، وإِنْ قالَ قالَ بِلِسانٍ<، يُسلِّمْ مَعَهُ بِأَنّ قُلُوبَ كثيرٍ مِن القُرَشيّينَ لا بُدّ أَن تكونَ قد اسْتَلْزَمَتْ أَلْسِنةً ذَرِبةً صارِمةً، ويُسلِّمْ مَعَهُ أيضًا بِأَنّ تُرْبَةَ العربيّةِ القُرَشيّةِ تَعَهّدَتْها عَوامِلُ باطنيّةٌ وظاهِرِيّةٌ زَمَنًا، فَكانَ أَن تَشَكّلَ ما يمكنُ أَن نُسَمّيَهُ >المُشاكَلَةَ النِّسْبِيّةَ< بَيْنَ لُغةِ قُرَيشٍ قَبْلَ التّنزيلِ، ولُغةِ القُرْآن. ونَرَى أَنّ هذه >المُشاكَلَةَ النِّسْبيّةَ< أَثمرَتْ محصولاتٍ عظيمةً، أَظْهَرُها انبِهارُ القُرَشِيّينَ بِلُغةِ القُرآن، هذا الانْبِهارُ الذي عَبّرَ عنهُ واحِدٌ مِن أَساطِينِ العربيّةِ القُرَشيّةِ حِينَ انْفَعَلَ إِلَى الغايةِ بِما سَمِعَهُ مِن قَوْلِه تعالى: چچچچچ ﭻچچﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉچ [النحل: ٩٠]، فقالَ مُعَبِّرًا عن اسْتِجابتِه الجَماليّةِ الأَدبيّة: >واللهِ، إنّ لَهُ لَحَلاوةً وإنّ عَلَيْهِ لَطَلاوةً، وإنّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وإنّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، وإِنّهُ لَيَعْلُو ولا يُعْلَى عَلَيه<.

٣- تَناهي النُّضْجِ اللُّغَوِيّ البَيانيِّ في العَرَبيّة القُرَشيّةِ قَبْلَ نُزولِ القُرآن:

بَلَغَ المُسْتَوَى اللُّغويُّ البَيانيُّ لِلَهْجةِ قُرَيشٍ قَبْلَ نُزُولِ القرآنِ مستوًى عاليًا جِدًّا في الإفصاحِ والإِبانةِ والخِلابة، وقد تَقدّمَ أَنّ قُرَيشًا مُلُوكُ

١- عَمْرو بن بحر الجاحظ: رسائل الجاحِظ، نشرة عبدالسّلام محمّد هارون، ج٤، ص١١٤-١١٧.

العَرَبِ، وقد قالَ الأَجْدادُ المُثقَّفُونَ مِن العَرَب: >كَلامُ المُلُوكِ مُلُوكُ الكَلام<. وتَسْتَلْزِمُ الضَّرورةُ أَنّ تنزيلَ القُرآنِ بِلَهْجةِ قُرَيشٍ يَعْنِي أَنّ المُكوّناتِ الأَساسيّةَ واحِدةٌ في البَيانَيْنِ، القُرَشِيِّ والقُرآنيّ.

ويَبْدُو أَنّ بَعْضَ ذَوِي الحَساسيّةِ الجَماليّةِ اللّغويّةِ مِن العَرَبِ خُيِّلَ إِلَيْهِ قَبْلَ نُزُولِ الوَحْيِ القُرآنيِّ مُباشَرةً أَنّ قُرَيشًا ستَشْهَدُ ارتقاءً بيانيًّا هائلًا في لُغَتِها بَعْدَ التّناهي في نُضْجِها اللُّغَوِيّ. ورُبَّما نَدْنُو مِن فَهْمِ الدِّلالةِ الدّقيقةِ لِهذا حِينَ نَتأمَّلُ هذه الرِّوايةَ، وهي ما جاءَ في كتابِ >الإِمْتاعِ والمُؤانَسةِ< لِلتّوحيديِّ مِن قَوْلِه: >قالَ إِسْحاقُ بنُ إِبْراهيمَ المَوْصِلِيّ: >انْصَرَفَ العَبّاسُ بنُ مِرْداسٍ السُّلَمِيُّ مِن مَكّةَ فقالَ: >يا بَنِي سُلَيْم، إِنّي رَأيتُ أَمْرًا، وسيكونُ خَيْرًا. رَأَيْتُ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ كأَنّ قُدُودَهُم الرِّماحُ الرُّدَيْنيّةُ، وكَأَنّ وُجُوهَهُم بُدُورُ الدُّجُنّةِ، وكَأَنّ عَمائِمَهم فَوْقَ الرِّجالِ أَلْوِيةٌ، وكَأَنّ مَنْطِقَهُم مَطَرُ الوَبْلِ عَلَى المَحْلِ. وإِنّ اللهَ إِذا أَرادَ ثَمَرًا غَرَسَ لَهُ غَرْسًا، وإِنّ أُولئكَ غَرْسُ اللهِ؛ فتَرَقَّبُوا ثَمَرَتَهُ، وتَوَكَّفُوا غَيْثَه، وتفَيَّؤوا ظِلالَه، واسْتَبْشِرُوا بِنِعْمةِ اللهِ عَلَيكُم<[١].

ويَتراءَى أَنّ عُلَماءَ العربيّةِ ابْتداءً مِن القَرْنِ الثّاني لِلْهجرةِ أَدْرَكُوا بِيئتَيْنِ لُغَوِيَّتَيْنِ: بِيئةً تُصْلِحُ اللّغةَ وترتقي بِها وهي بِيئةُ مَكّةَ وقُرَيشٍ، وبِيئةً تُفْسِدُ اللّغةَ وتَشِينُها. يقولُ الجاحِظُ: >ومَتَى وَجَدَ النَّحْوِيّونَ أَعْرابيًّا يَفْهَمُ هذا وأَشْباهَه [يَعْني ما خالَفَ المَعْهُودَ مِن لُغةِ قُرَيش] بَهْرَجُوهُ ولَمْ يَسْمَعُوا مِنهُ؛ لِأَنّ ذلكَ يَدُلُّ عَلَى طُولِ إِقامَتِه في الدّارِ التي تُفْسِدُ اللّغةَ وتَنْقُصُ البَيانَ. لِأَنّ تِلْكَ اللّغةَ إِنّما انقادَتْ واسْتَوَتْ واطّرَدَتْ وتكامَلَتْ، بِالخِصالِ التي اجْتَمَعَتْ لَها في تِلْكَ الجَزِيرةِ، وفي تِلْكَ الجِيرة<[٢]. ويقولُ العَلّامةُ عَلي عَبْدالواحد وافي في صِفةِ لَهْجَةِ قُرَيْشٍ هذه: >كانَتْ أَوسَعَ اللّهَجاتِ العربيّةِ ثَرْوةً، وأَغْزَرَها مادّةً، وأَرَقَّها أُسْلُوبًا، وأَدْناها إِلَى الكَمال، وأَقْدَرَها عَلَى التّعبير في مختلفِ فُنُونِ القَوْلِ. وقد تَمّ لَها ذلكَ بِفَضْلِ ما أُتيحَ لِأَهْلِها مِن وَسائلِ الثّقافةِ والنّهوض، وما أُتيحَ لَها مِن فُرَصٍ كثيرةٍ لِلاحتكاكِ بِمُختلِفِ

١- أبو حَيّان التّوحيديّ، الإمتاع والمُؤانسة، ج١ ص٧٣.

٢- الجاحظ، البَيان والتّبيين، ج١، ص١٦٢-١٦٣.

اللَّهَجاتِ العربيّة<(١).

٤- انْتِصارُ لَهْجةِ قُرَيشٍ عَلَى اللَّهجاتِ العربيّةِ الأُخَر (الانتِصارُ الأَوّلُ):

يُثيرُ العَجَبَ كُلَّ العَجَبِ عِنْدِي أَنّ تاريخَ اللّغةِ العربيّةِ الذي أَتَأمَّلُهُ في حاضِرِي كان سَيْرًا مُتّصِلًا في اتّجاهَيْنِ:

الأَوّلُ اتّجاهٌ داخِلِيٌّ ضِمْنيٌّ ظَلّتْ فِيهِ العربيّةُ تَصْعَدُ عالِيًا بِاتّجاهِ التَّحْسِينِ والتّهذيبِ والصَّقْلِ حتّى بَلَغتِ الذِّرْوةَ في ذلكَ قَبْلَ تنزيلِ الذِّكْرِ الحَكيمِ، ثمّ حِينَ ظَهَرَتِ المَشيئةُ الإلهيّةُ العَظيمةُ إِلَى العِيانِ، وأَبْصَرَ القُرَشِيُّونَ أَهْلُ البَيانِ قُرْآنًا عَرَبيَّ اللِّسانِ، يقولُ فِيهِ خالِقُهم لِأَفْصَحِ واحِدٍ مِنهم: چٺٿٹچ [المزمل: ٤]، ويقولُ لَهُمْ جُمْلَةً: چںڻڻڼڻؤچ [القمر: ١٧]، ويقولُ إِنّ جُمْهُورَ القُرآن نَوْعانِ: عامّةُ النّاسِ، والمُتّقونَ مِن النّاس: چۀہھۂۃچ [آل عمران: ١٣٨]، [أقولُ: حِينَذاكَ] ارتَقَى أَهْلُ اللِّسانِ واللِّسانُ إِلَى القُنّةِ العُلْيا.

الاتّجاهُ الثّاني في سَيْرِ العربيّةِ كانَ بِاتّجاهِ قُلُوبِ العَرَبِ وعُقولِهم وأَخْيِلَتِهم عَلَى امْتِدادِ الجزيرة، شِمالًا وجَنُوبًا وشَرْقًا وغَرْبًا، إِلَى أَن أَزاحَتْ هذه العربيّةُ القُرَشيّةُ اللّهجاتِ العربيّةَ الأُخَرَ، بِالمَحَبّةِ والإِكْرامِ والإعجاب. وهذه الثّلاثةُ تَفْتَحُ المُسْتغْلَقاتِ، وتُيسّرُ المُستَصْعِباتِ، وتُحْدِثُ المُستحِيلات. يقولُ الأستاذُ عَلِيّ عَبْدالواحِد وافي في هذا الشّأن: >أُتِيحَ لِهذِه اللَّهَجاتِ المُتعدِّدةِ فُرَصٌ كثيرةٌ لِلاحتكاكِ بِفَضْلِ التِّجارةِ وتَبادُلِ المَنافِعِ، ومُجاوَرةِ القبائلِ العربيّةِ بَعْضِها لِبَعْض وتنقُّلِها في طَلَبِ الكَلأِ وتجمُّعِها في الحَجِّ والأَسْواقِ والحُرُوبِ الأَهْلِيّة.. فاشْتَبَكَتْ مِن جَرّاءِ ذلكَ اللّهجاتُ العربيّةُ بَعْضُها مَعَ بَعْضٍ في صِراعٍ لُغَوِيٍّ كُتِبَ النَّصْرُ فِيهِ لِلَهْجةِ قُرَيش، فَطَغَتْ عَلَى جميعِ اللّهَجاتِ الأُخْرَى في المُحادَثةِ، واسْتَأْثَرَتْ بِمَيادِينِ الأَدَبِ، شِعْرِها وخَطابَتِها ونَثْرِها، في مُخْتَلِفِ القبائلِ العربيّة<(٢).

ويَعْني هذا تَمامًا أَنّ عَرَبَ الجزيرةِ قَبْلَ تَنْزِيلِ القُرآنِ بِوَقْتٍ صارَ

١- فقه اللّغة، ص١٠٩-١١٠.

٢- السّابق، ص١٠٨-١٠٩.

هَواهُمُ اللُّغَويُّ عَرَبِيًّا قُرَشِيًّا، فَكُنتَ تَراهُم يَطْرَبونَ لِسَماعِ النَّمُوذَجِ اللّغويِّ العربيِّ القُرَشيِّ، ويَتَملّحُونَ بِمُحاكاتِهِ وإنتاجِ مَثِيلٍ لَهُ، ويَفْخَرُ شُعَراؤهم الكِبارُ بِأَن يَظْفَروا بِشَهاداتٍ في ارتقاءِ أَدائِهِم اللّغويّ يُقدّمُها القُرَشِيُّونَ.

٥- القُوّةُ البَيانيّةُ العالِيةُ لِلَهْجةِ قُريشٍ قَبْلَ تَنْزيلِ الوَحْيِ بِوَقْتٍ:

يُفهَمُ مِن كثيرٍ مِنَ القَرائنِ أَنّ الغَلَبةَ اللّغويّةَ لِلَهْجةِ قُرَيش وإِضعافَها لَهجاتِ قَبائلِ العَرَبِ أَحْدَثَتْ مِقدارًا مِن >وَحْدَةِ اللّغةِ العربيّةِ<، وارْتِقاءً في الاسْتِعْمالِ اللُّغَويِّ بِاتّجاهِ >الأَدَبيّةِ< والكلامِ الرّفيع. يقولُ وافي في هذا الشّأن: >تَرَتّبَ عَلَى تَغَلُّبِها عَلَى بَقيّةِ اللَّهَجاتِ أَن أَصْبَحَتْ لُغةَ الآدابِ عِنْدَ جميعِ قَبائلِ العَرَبِ؛ فَبِها كان يُنْظَمُ الشّعْرُ، وتُلْقَى الخُطَبُ، وتُرسَلُ الحِكَمُ والأَمْثالُ، وتُدَوَّنُ الرّسائلُ، وتَتَفاوضُ الوُفودُ، ويَتبارَى الأُدَباءُ، وتُجْرَى المُناقَشةُ في النّوادي والمُؤتمَرات. وقد تَمّ لَها ذلك قَبْلَ بِعْثَةِ الرّسولِ عَلَيهِ السّلامُ بِزَمَنٍ غَيْرِ قَصِيرٍ<(١).

ويَبْدُو غَيْرَ مُحْتاجٍ إِلَى تَأكيدٍ أَنّ اغْتِباطَ قبائلِ العَرَبِ بِلَهْجةِ قُرَيشٍ قَبْلَ التّنزيلِ هَيّأَ السّلائقَ والذّوائقَ لِفَهْمِ النّموذَجِ البَيانيِّ القُرْآنيِّ والانْفِعالِ الجَماليِّ به إِلَى الغاياتِ؛ لِأَنّ النّفوسَ تَسكُنُ إِلَى ما وافَقَ هَواها وهَزّ طِباعَها ولَبَّى رَغائبَها. وفي هذا يقولُ وافي: >فلا غَرابةَ إِذَن في أَنّ القُرآنَ، وقد جاءَ بِلُغةِ قُرَيشٍ، كانَ مفهومًا لَدَى جميعِ القَبائِلِ، وكانَ يُؤثّرُ في العَرَبِ جميعًا بِبَيانِهِ وبَلاغته. فقد نَزَلَ بَعْدَ أَن تَمّ لِلَهْجةِ قُرَيشٍ التّغلُّبُ عَلَى اللّهَجاتِ العربيّةِ الأُخْرَى، وبَعْدَ أَن أَصبحَتْ لُغةَ الآدابِ لِسائرِ قبائلِ العَرَبِ<(٢). ويُعَلّلُ ابنُ خَلْدُون فَصاحةَ لُغةِ قُرَيشٍ بِبُعدِهم عن العَجَمِ، فيقولُ: >كانَتْ لُغةُ قُرَيشٍ أَفصحَ اللّغاتِ العربيّةِ وأَصْرَحَها؛ ثُمّ مَن اكتنفَهم مِن ثَقيفٍ وغسّانَ وإِيادٍ وقُضاعةَ وعَرَبِ اليَمَنِ، المُجاورينَ لِأُمَمِ الفُرْسِ والرّومِ والحَبَشةِ، فَلَمْ تَكُنْ لُغتُهم تامّةَ المَلَكةِ بِمُخالَطةِ الأَعاجِم<(٣).

١- نَفْسُه، ص١١١-١١٢.

٢- نفسه، ص١١٢.

٣- مقدّمة ابن خلدون، ص١١٤١.

٦- انتصارُ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرآنيّةِ وإزاحَتُها مُعْظَمَ لُغاتِ بُلْدانِ الفَتْح (الانتصارُ الثّاني):

رَكّزَ حَدَثُ التَّنْزيلِ، والتَّنْزيلُ نَفْسُه، والمُتَلَقّي الأَوّلُ لِلتَّنْزيلِ، عَلَى مَبْدَأ >الإبلاغِ< و>التَّبْليغِ<، بِمَعْنَى الإيصالِ التّامِّ لِلْمُرادِ الإلهيِّ في القُرآنِ الكريم. وجَهَدَ النّبيُّ عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ في تَثْبيتِ الإيقانِ عِنْدَ المُسْلِمينَ الأُوَلِ بِأَنّ القُرْآنَ >أمانةُ اللهِ< و>رِسالةُ اللهِ<، وأَنّ >مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ< الذي أَدَّى الأَمانةَ وبَلّغَ الرّسالةَ. ويَكْتَمِلُ معنَى >التَّبْليغ< بِأَنْ يكونَ كُلُّ مُسْلِمٍ مُبَلّغًا لِلْقُرآن؛ ولِهذا قالَ نَبيُّ الإسْلامِ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ: >بَلّغُوا عَنّي ولَوْ آيةً<. واسْتَلْزَمَ الأَمْرُ بِالتَّبْليغِ هذا تَحَرُّكَ المُسْلِمينَ في كُلّ اتّجاهٍ لِتَبْليغِ الرّسالةِ وتأديةِ الأَمانة. ولَكَ أَنْ تتأمّلَ في قَوْلِ رَبّنا: ﭽﮀﮁ ﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉ.. ﭼ [النصر: ١-٢]، لِتَفْهَمَ قَدْرًا مِن طَبيعةِ الحَرَكةِ العظيمةِ التي هَيّأَتْ لِانْتشارِ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرآنيّةِ بَعْدَ مَجيءِ نَصْرِ اللهِ وفَتْحِ القُلُوبِ ورُؤيةِ النّاسِ يدخلونَ في دِينِ اللهِ أَفْواجًا. ولَسْتُ أَرى عَنَتًا في أَن أَتَخَيَّلَ الآنَ أَنّ عَرَبيّةَ القُرآنِ، أي كَوْنَهُ بِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ، وعَرَبيّةَ أَفْصَحِ العَرَب، مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلام، وعَرَبيّةَ مُؤدّي الأَمانةِ ومُبَلّغي الرِّسالةِ، مِن القُرَشيّينَ وسِواهُم، عَمِلَتْ جَميعًا بِالتّأييدِ الإلهيِّ المُبينِ، عَلَى أَن يَدَعَ أَهْلُ البِلادِ المفتوحةِ لُغاتِهم بَعْدَ مُضيِّ بَعْضِ الوَقْتِ، لِتُصْبِحَ لُغةُ >المُعَلِّمِ لِلدِّينِ< هي الغالِبةَ الغالِيَةَ المَحْبوبةَ. ومَعَ كُلِّ إيثاري لِلْحَقيقة، أَمِيلُ إِلَى القَوْلِ إنّ العَرَبيَّ >المُعَلّمَ لِلدِّين< كانَ في الأَعَمِّ الأَغلب مُحِبًّا لِمَنْ يُعَلّمُه الدِّينَ، مُرِيدًا لَهُ الخيرَ. ولِهذا أَحَبَّهُ هذا، وأَحَبَّ دِينَه، وأَحَبَّ لُغَتَه، واسْتجابَ بِقُوّةٍ لِتَعْليمِه.

ونُسَمّي هذا الانتصارَ >الانتصارَ الثّانيَ<، في مُقابِلِ الانتِصارِ الأَوّل، انْتِصارِ لَهْجةِ قُرَيشٍ عَلَى لَهَجاتِ العَرَبيّةِ الأُخَر. ويتحدّثُ العَلّامةُ ابْنُ خَلْدُون عن هذا الانْتِصار، ويُرْجِعُه أَساسًا إِلَى >العَقيدةِ< في الإسْلام، التي هي فِكْرةٌ أَو تَصَوُّرٌ انْعَقَدَتْ عَلَيهِ القُلُوبُ أَوّلًا، فتحوّلَتْ إِلَى وُجُودٍ مُتعيّنٍ ماثِلٍ في الآفاق. يقولُ ابنُ خَلْدُون:

>اعْلَمْ أَنّ لُغاتِ أَهْلِ الأَمْصارِ إِنّما تكونُ بِلِسانِ الأُمّة، أو الجِيلِ الغالِبِينَ عَلَيها أو المُخْتَطّينَ لَها؛ ولِذلكَ كانَتْ لُغاتُ الأَمْصارِ الإسْلاميّةِ

كُلِّها بِالمَشْرِقِ والمَغْرِبِ، لِهذا العَهْدِ، عَرَبِيّةً. والسَّبَبُ في ذلكَ ما وَقَعَ لِلدَّوْلَةِ الإِسْلاميّةِ مِن الغَلَبِ عَلَى الأُمَمِ. والدِّينُ والمِلّةُ صُورةٌ لِلْوُجودِ ولِلْمُلْكِ، وكُلُّها مَوادُّ لَهُ، والصُّورةُ مُقدَّمةٌ عَلَى المادّةِ<(١).

وقد عاشَ ابْنُ خَلْدُونٍ في القَرْنِ الثّامِنِ لِلْهِجْرةِ، وغادَرَ الدّنيا في نِهايةِ العَقْدِ الأَوّلِ مِن القَرْنِ التّاسِعِ، وأُتِيحَ لِذَكائِهِ الثّاقِبِ أَن يَتأمّلَ حَرَكةَ انتشارِ العَرَبيّةِ القُرَشيّةِ القُرْآنيّة، وإزاحَتَها لُغاتِ الأَمْصارِ المفتوحة، فيُقدِّمَ تَعْليلًا لِذلكَ، وهو المَشْغولُ بِتَفْسيرِ حَرَكةِ التّاريخ، يَنْطَوِي عَلَى قَدْرٍ مِن الصّواب، ويقولُ فيه:

>والدِّينُ إِنّما يُسْتَفادُ مِن الشّريعةِ، وهي بِلِسانِ العَرَب؛ لِما أَنّ النّبيَّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ عَرَبيٌّ، فَوَجَبَ هَجْرُ ما سِوَى اللِّسانِ العَرَبيّ مِن الأَلْسُنِ في جَميعِ مَمالِكِها. فَلَمّا هَجَرَ الدِّينُ اللّغاتِ الأعجميّة، وكانَ لِسانُ القائمينَ بِالدَّوْلةِ الإسلاميّةِ عَرَبيًّا، هُجِرَتْ كُلُّها في جميعِ مَمالِكِها؛ لأَنّ النّاسَ تَبَعٌ لِلسُّلْطانِ، وعَلَى دِينِه، فصارَ اسْتِعْمالُ اللِّسانِ العَرَبيّ مِن شَعائرِ الإسلامِ وطاعةِ العَرَبِ. وهَجَرَ الأُمَمُ لُغاتِهم وأَلْسِنتَهم في جَميعِ الأَمْصارِ والمَمالِك، وصارَ اللِّسانُ العَرَبيُّ لِسانَهم، حَتّى رَسَخَ ذلك لُغَةً في جَميعِ أَمْصارِهم ومُدُنِهم، وصارَتِ الأَلْسِنةُ العَجَميّةُ دَخيلةً فِيها وغَريبةً<(٢).

٧- تَعْرِيبُ عَرَبيّةِ القُرْآنِ العالَمَ في عَصْرٍ مِن العُصُور:

الإِنْسانُ في الوُجودِ المُتَعيّنِ فاعِلٌ ومُنْفَعِلٌ. ويَرَى المُعَلِّمُ الفَيْلَسُوفُ مُحَمَّد إِقْبال أَنّ الذي يُحْيي الحَياةَ إِنّما هو الأَمَلُ، ويُسمّي الأَمَلَ >جَرَسَ رَكْبِ القافِلةِ<، الذي تَسْمَعُ جِمالُ القافِلةِ صَوْتَه فتتقدّمُ وتَنْدَفِعُ. ويَبْدُو أَنّ >الأَمَلَ<، أَمَلَ رِضا اللهِ، هو الذي حَرّكَ العَرَبَ لِكَي يَنْقُلُوا هذا الأَمَلَ إِلَى أُمَمِ الأَرْضِ بِالتّحبيبِ لا بِالقَهْرِ، وبِالتّيسيرِ لا بِالتَّعْسير. وإِخالُ أَنّهم لَوْ كانُوا فَظّينَ غِلاظَ القُلُوبِ لانْفَضَّ مِن حَوْلِهم حَتّى العَرَبُ أنفُسُهم. وطَيِّبٌ، فِيما أَرَى، قَوْلُ مَن قالَ: >لَمْ أَرَ فاتِحًا أَرْحَمَ مِن العَرَبِ<.

ويَعْرِضُ عَلَينا العَلّامةُ عَلي عَبْدالواحِد وافي صُورةً تُرْتضَى بِقَدْرٍ

١- مقدّمة ابن خلدون، ص٨٢٨.

٢- نفسُه.

كبيرٍ لِتَعْرِيبِ العَرَبيّةِ القُرْآنيّة العالَمَ في عَصْرٍ مِن العُصورِ، فيقولُ:

>أَدّتِ الفُتُوحُ العربيّةُ بَعْدَ الإِسْلامِ إِلَى امْتِزاجِ العَرَبِ واحْتكاكِهم بِكَثيرٍ مِن الشّعُوبِ؛ فاشتبكتْ لُغتُهم مِن جَرّاءِ ذلكَ في صِراعٍ مَعَ اللُّغاتِ الآراميّةِ في سُورِيَةَ ولُبْنانَ والعِراق، ومَعَ القِبْطيّةِ في مِصْرَ، ومَعَ البَرْبَريّةِ في شِماليّ إِفْرِيقِيَةَ، ومَعَ الفارسِيّةِ في إيرانَ، ومَعَ التّركيّةِ في بِلادِ المَغُول، ومَعَ القُوطيّةِ في إِسْبانيا. وقَضَتْ قَوانِينُ الصّراعِ اللُّغَويّ أَن تَصْرَعَ الثّلاثَ الأُولَى مِنها، حَتّى أَصبحَتِ المِساحةُ التي تُستَعْمَلُ فِيها العربيّةُ لُغةَ حَديثٍ وكِتابةٍ نَحْوَ أربعةَ عَشَرَ مِلْيُونَ كيلو مِتْرٍ مُرَبَّعٍ، وبَلَغَ عَدَدُ المُتكلّمينَ بِها زُهاءَ مِئةِ مِلْيونٍ<(١).

ويَنتَبِهُ وافي إِلَى أَمْرٍ إخالُه مُهِمًّا في تَعْرِيبِ العَرَبيّةِ العالَمَ، وهو أَنّ العَرَبيّةَ نَزَلَتْ عِنْدَ شُعُوبِ البُلْدانِ المَفتوحةِ مَنْزِلةَ المُحَبِّ المُكْرَم، واسْتَشْعَرَتْ لَها هذه الشُّعوبُ قَداسةً ورِفْعةً وتقديرًا هائِلًا، فيقولُ:

>لَمْ يَقِفْ نُفُوذُ العَرَبيّةِ عِنْدَ هذا الحَدِّ [ما ذَكَرْناهُ له في الفِقْرةِ السّابقة]، بَلْ تجاوَزَهُ إِلَى جَمِيعِ الأُمَمِ الإسلاميّةِ الأُخْرَى (باكستان، الهِنْد، أفغانستان، تُرْكِسْتان...). فَأُنْزِلَتِ العَرَبيّةُ عِنْدَ هذه الأُمَمِ مَنْزِلةً مُقَدَّسةً سامِيَةً؛ لِأَنّها لُغةُ القُرْآنِ والحَديثِ اللّذَيْنِ يَقُومُ عَلَيها الدِّينُ الإسْلاميُّ، وهي التي أُلِّفَ بها جَميعُ كُتُبِ التَّفْسيرِ والسُّنّةِ والفِقْهِ والأُصولِ والتّوحيدِ... وهي فَضْلًا عن هذا وذاكَ اللُّغةُ التي يَجِبُ أَن يُؤدَّى بِها كثيرٌ مِنَ العِباداتِ الإسْلاميّة<(٢).

٨- المُحَصَّلُ الأخيرُ، أو قَصيرةٌ مِن طَويلة(*):

خَلَصَ البَحْثُ إِلَى أَنّ عَرَبيّةَ القُرآنِ الكريمِ، أي العَرَبيّةَ القُرَشيّةَ، هُيِّئَ لَها قَبْلَ زَمانِ التّنزيلِ أَن تُصْقَلَ وتُهذَّبَ وتَرْتَقِيَ، إِلَى أَن غَدَتْ لُغةَ الأَدَبِ عِنْدَ العَرَب، شِعْرًا وخَطابةً، والعِيارَ الذي تُقاسُ بِهِ مَنْزِلةُ الكَلامِ في سُلَّمِ الإجادةِ والإتقانِ. وعَرَفَتْ ذلكَ قَبائلُ العَرَبِ لِقُرَيْش، وجَهَدَتْ هذه القبائلُ في مُحاكاةِ العربيّةِ القُرَشيّةِ شَيْئًا فَشيئًا، إِلَى أَن غَلَبَتْ هذه

١- فقه اللّغة، ص١٢٨-١٢٩.

٢- فقه اللّغة، ص١٣٠.

*- عبارةٌ عربيّةٌ قديمةٌ يُرادُ بِها تَمامًا ما يُساوي تعبيرَ >غَيْض مِن فَيْض<، أو مُوجَزُ القَوْل. والقصيرةُ هنا التَّمْرَةُ، والطّويلةُ النَّخْلَةُ.

العَرَبيّةُ اللّهجاتِ العربيّةَ الأُخَرَ في الجزيرةِ وحَلَّتْ مَحَلَّها. ثُمّ حِينَ جاءَ التّنزيلُ بِها، وكُتِبَ وثُبِّتَ وقُرِئَ بِتَرْتيلٍ وتَجْويدٍ ازدادَتْ أَلْقًا عَلَى أَلْقٍ وإِشْراقًا عَلَى إِشْراق، ثُمّ حَمَلَها المُتحدِّثونَ بِها المُحِبّونَ لَها إِلَى الشّامِ والعِراقِ، حَيْثُ نَحّتْ جانِبًا الآراميّةَ، وإلى مِصْرَ حَيْثُ نَحّتِ القِبْطيّةَ، وإلى دِيارِ المَغْرِبِ، حَيْثُ نَحّتِ البَرْبَريّةَ. وخاضَتْ هذه العربيّةُ عِراكًا مَعَ الفارسيّةِ ولُغاتِ البلادِ المفتوحةِ في الشَّرْق، ومَعَ لُغاتِ ساكِني دِيارِ الغَرْبِ الأندلسيِّ. وعَلَى هذا، تكونُ عَرَبيّةُ القُرآنِ قد عَرّبتْ شَطْرًا كبيرًا مِن العالَم حامِلةً إِلَيْهِ نُورَ الارتقاءِ الرّوحيِّ والعَقْليِّ والسُّلُوكيِّ، ومَفاتيحَ الازْدِهارِ المادِّيّ!

المَصادِرُ والمَراجِعُ:

١- أبو حَيّان التّوحيديّ: الإِمْتاعُ والمُؤانسةُ، المطبعةُ العَصْريّة، صيدا - بيروت.

٢- عَمْرو بن بَحْر الجاحِظ:

- البيانُ والتّبيينُ، بِتَحْقيقِ عبدالسّلام مُحمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت.

- رسائلُ الجاحظِ، بِتَحْقيقِ هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة د.ت.

٣- ابن خَلْدون: مُقدِّمةُ ابن خَلْدُون، بِتَحْقيقِ علي عبدالواحد وافي، دارُ نهضةِ مصر لِلطِّباعة والنّشْر والتّوزيع، القاهرة ٢٠٠٤م.

٤- علي عبدالواحد وافي: فقهُ اللّغة، دارُ نهضة مصر، القاهرة د.ت.